فما لهؤلاء السادة يأفكون، وإنّهم ليعلمون أنّهم يأفكون؟ وما للذين يلونهم من جماعاتهم ينقادون لهم، صمّاً بكماً عمياً، بغير تبصّر ولا تفكير، انقياد السوائم، تندفع إلى الهاوية، بغريزة القطيع؟ الحسد هو سرّ الأسرار. * * * من أقصى الشمال بالشام، وما يليها من دولة الروم، إلى أقصى الجنوب باليمن التي استردّها ابن ذي يزن[388] من أيدي الحبشان، شاع أمره في الندوات، ومسامر السمّار، وتجمّعات الجمهور. في هذه الرقعة الشاسعة التي كانت مواقعها المختلفات مهابط للوحي ومنازل للأنبياء والمرسلين، على تباعد الأماكن وتواتر السنين، سارت قوافل التجّار، ومساري السفّار، وخطى الظاعنين والمرتحلين، تنشر في الآفاق وفي الأذهان نبأ الرسالة المنتظرة، وذكر الرسول الموعود. ولم تكن قريش لتجهل هذه الأخبار، ولا كانت لتهملها، وتطويها في جوف النسيان. بل هي تعلمها علم يقين، أخذتها من كتابات الأقدمين، ومن تشيمات الكهّان، ومن نبوءات الأحبار، ومن بشارات الرهبان، ومن نصوص التوراة والإنجيل. ومع هذا كلّه، وقبله وبعده، من ظروف الأحوال، وصور الواقع ومجريات الأمور